الفصل الأول

نحل العسل فى القرآن

آية النحل
بين المفهوم الدارج والتفسير العلمى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِف أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفكرُونَ (٦٩) ﴾

آيات عزيزات على نفسى ، أشعر بالزهو والفخار حين أقرؤها ، لما تحويه من تكريم للنحل الذى أهوَى دراسته ، تعودت كل عام أن أتلوَها على طلابى فى بدء المحاضرة الأولى لعلم تربية النحل ، وعند تلاوتها فى كل مرة كنت أشعر دائمًا بالرهبة والخوف خشية أن أخطىء فيها بنقل جملة « فاسلكى سبل ربك ذللاً » من مكانها لوضعها قبل الجملة السابقة لها حتى تتلاءم مع المنطق الذى يساير

obeikandl.com

المعنى الدارج المعروف منذ القدم بأن النحل يسكن فى عشوشه ، ثم يطير باحثًا عن الغذاء ليأكل منه وينتج العسل (فقط) الذى فيه شفاء للناس .

ولكى تنسجم الآية مع هذا المعنى السطحى يجب ألا توجد هذه الجملة فاصلة بين جملة ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ وجملة ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ﴾ إذ يجب أن تتتابع هاتان الجملتان بدون فاصل ، إذا كان المقصود منها حقًا أن النحل يأكل من كل الثمرات لكى يخرج لنا العسل (فقط) .

ومما كان يدعونى للتخوف والرهبة عند تلاوة هذه الآية غيبيًا أن جملة ﴿فاسلكى سبل ربك ذللاً﴾ معناها القريب للفهم أن الله يلهم النحل أن يتجول فى السبل أو الطرق التى ذللها له فى البحث عن الغذاء ، ولتحقيق هذا المعنى يجب ألا تسبقها جملة ﴿ثم كُلِى من كُلِّ الثَّمرات﴾ ، ولكن نظرًا لورودها بأسلوبها الحالى فقد فسرها المفسرون على أن النحل يتجول فى جو السماء بحثًا عن مسكنه للعودة بعد جمع الغذاء بدون أن يضل طريقه ، وهذا لا ينطبق بتاتًا مع المنطق البديهى المعروف عن جميع الكائنات الحية ، إذ أنها تتجول للبحث عن الغذاء ثم تعود إلى عشوشها مباشرة مهما انخفضت درجة ذكائها ، ولو كان المقصود بهذه الجملة هو التجول فى أجواء السماء لجاء وضعها قبل جملة ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ ، وليس بعدها ليكون

معناها ، أن تسلك السبل التى ذللها الله لها للبحث عن الغذاء ، وهذه القدرة ليست معجزة تستحق أن يذكرها الله سبحانه وتعالى فى قرآنه العظيم ، ويخص بها النحل بالذات لاسيما بعد أن وصف سلوكه بأنه نابع من وحى الله .

ومما يبعد ذلك المعنى السطحى عن هذه الآية أن النحل ليس بقادر على الطيران والتجول فى أجواء السماء ، كقدرة الطيور والخفافيش وبعض الحشرات القوية مثل الجراد ، إذ أن النحل لا يطير إلا لمسافات قصيرة خاصة إذا توافر الغذاء بالقرب من خلاياه ولا يمكن أن يطير أكثر من ٥– ٧ أميال ، ويطير على ارتفاعات منخفضة نسبيًا ، وبعكس ذلك فإن الطيور تقطع آلاف الأميال وبعضها تعبر البحار والجبال عند هجرتها من المناطق الباردة شتاء إلى المناطق الدافئة ثم تعود أدراجها فى فصل الصيف ، ومع ذلك فلم تذكر فى القرآن إلا بالآيات التالية :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾
[٣٨ سورة الأنعام]

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ﴾
[٧٩ سورة النحل]

﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾

[٤١ سورة النور]

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ(١٩)﴾ [سورة ص]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِ شَىْءٍ بَصِيرٌ(١٩)﴾ [سورة الملك]

فلابد إذن أن يكون لجملة ﴿فاسلكى سبل ربك ذللاً﴾ معنى آخر غير معنى الطيران .

وبالرغم من المعلومات الغزيرة التى قرأتها وقرأها غيرى من الدارسين للنحل ، فإن العلم كان فى واد وتفسير القرآن بمعانيه فى واد آخر ، ولم يحاول أحدنا مضاهاة العلم مع معانى هذه الآية القرآنية ، وفى الحقيقة لم يرد هذا الموضوع على خاطرى إلا بعد أن طلب منى أحد مخرجى البرامج الدينية بالتليفزيون أن أقدم حلقة عن النحل فى القرآن الكريم ، فوجدت نفسى أتعمق فى آية النحل وتقمصت شخصية النحلة فتبين لى أن هذه الآية لا يتوافق أسلوبها مع المعانى السطحية التى كانت تعرف عنه قبل نزول القرآن على سيد المرسلين ، ولكنها تتطابق تمامًا مع المعلومات الحديثة التى بدأت فى الظهور منذ عام ١٨٥٢ بعد أن قام القسيس الأمريكى لنجستروث Langstrothبتصميم الخلية الخشبية ذات الإطارات المتحركة التى سهلت دراسة حياة وسلوك النحل ، وساعدت على تطوير وسائل تربيته واستغلاله ، بعد أن كان كل شىء عنه مجهولاً بسبب الخوف من وخزاته وعدم إمكان فحص عشوشه لدراسة أحواله .

فبعد أن كان مفهومًا أن الشراب الذى يخرجه النحل وفيه شفاء للناس هو العسل (فقط) ، ظهر حديثًا أن النحل يخرج سوائل أخرى بالإضافة للعسل وفيها شفاء للناس ، مثل السم الذى يلسع به أعداءه دفاعًا عن خليته ، وغذاءالملكات الذى يطعم به صغاره وملكاته ، والشمع الذى يخرج من جسمه سائلاً ويتجمد بمجرد تعرضه للهواء لكى يبنى به أقراصه ، علاوة على حبوب اللقاح التى يجمعها من الأزهار ويختزنها ليتغذى عليها ، ويطلق عليها خبز النحل ، والصمغ الذى يجمعه من النباتات ويمضغه ثم يثبت به أقراصه ويطلق عليه بروبوليس ، وهاتان المادتان أيضًا يفرز عليهما النحل اللعاب بما فيه من أنزيمات واردة من بطنه فتتحولان إلى مواد علاجية .

ووجود جملة ﴿فاسلكى سبل ربك ذللاً﴾ فى وضعها الحالى بالآية الكريمة يتطابق تمامًا مع ظهور القيمة الطبية لمنتجات النحل المتعددة ، ولكن بمفهوم أعمق وأدق من المعنى السطحى الدارج ، إذ يدل على أن النحل بعد أن يأكل من كل الثمرات يأمره الله أن يسلك السبل أو الطرق التى علمه إياها وذللها له لكى يحول ما أكله إلى سوائل مختلفة الألوان تفيد فى شفاء الإنسان ، وهى العسل وغذاء الملكات وسم النحل والشمع وغيرها ، وفى كل منها علاج من عدة أمراض .

ولو كان المقصود من آية النحل أن العسل (فقط) هو السائل الذى يخرجه النحل وفيه شفاء للناس لما جاءت فيها بتاتًا جملة

﴿ فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُللاً ﴾ ، إذ لا يكون لها معنى ، لأن العسل هو أبسط منتجات النحل وأسهلها تصنيعًا ، ومجهود النحل فى عمله يتمثل فقط فى جمع العصارة من الثمار (المجروحة) والرحيق من الأزهار ، ليقوم بتحليلها وتركيزها وتخزينها على نفس صورتها ولونها ، أما المواد الأخرى (غذاء الملكات والسم والشمع والأنزيمات) ، فهى أشد تعقيدًا وتختلف تمامًا فى أشكالها وتركيبها وألوانها عن بعضها البعض وعن المواد الغذائية التى يأكلها النحل . ومما يؤكد ذلك التفسير لغويًا أن جملة ﴿ فاسْلُكِي سبلَ ربّك ذللاً ﴾ وجملة ﴿ يَخرُجُ منْ بُطُونِهَا ... . ﴾ لا يربط بينهما حرف عطف فيكون الحدث الذى يتحقق فى الجملة اللاحقة ناتجًا عن الفعل فى الجملة السابقة ، أى أن النحل عليه أن يسلك سبل ربه التى ذللها له ، لكى تخرج من بطنه تلقائيا سوائل فيها شفاء للناس .

وبزيادة التعمق فى هذه الآية يتبين أن كل كلمة فيها ، بل كل حرف ، يتضمن معنى دقيقًا لم يعرف إلا فى عصرنا الحالى ، ويدل دلالة واضحة على أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف بشر كما يدعى المغرضون ، بل أن القرآن بأسلوبه الدقيق يعتبر معجزة لغوية علمية علاوة على المعجزات التى سردها الله فيه عن قدرته فى تكوين مخلوقاته المتعددة .

الإعجاز العلمى فى آية النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِف أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنـَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٦٩)﴾

عند التمعن فى هاتين الآيتين الكريمتين يتضح تطابق كل كلمة فيهما ، بل كل حرف ، مع المعلومات التى لم تعرف عن النحل إلا حديثًا ، ويمكن توضيح الإعجازات العلمية بهما بالإجابة على الاستفسارات التالية لكل جملة منهما .

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

هذه الجملة تثير بعض التساؤلات وهى :

لماذا خص الله النحل بوحيه دون سائر المخلوقات غير المكلَّفة ؟

وما مظاهر هذا الوحى ؟

ولماذا لم ينسب هذا الوحى إلى لفظ الجلالة « الله » وهو المعبود بينما نسب إلى « ربِّك » أى خالقك (خالق الإنسان) ؟

١ – ما معنى وحى الله للنحل :

فى هذا الوحى تكريم للنّحل وتعظيم للخدمات التى يؤديها ، ومعناه أن النحل يؤدى أعماله التى ستذكر فيما بعد بوحى من الله ، والوحى فى هذه الحالة مقصود به الإلهام أى التصرف الذى يؤدى تلقائيًا بدون سبب واضح ، وبدون قصد أو تفكير كما قال الله فى كتابه الحكيم :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي﴾ [القصص : الآية ٧]

لأن أم موسى لو كانت تتصرف بعقلها فى هذا الشأن ما ألقت بوليدها فى البحر ، لأنه فى هذه الحالة سيكون هالكًا لا محالة ، والأقرب للعقل أن تخفيه بأية وسيلة ففرصة نجاته تكون أكبر ، ووحى الله للنحل يقصد به الأعمال التى يؤديها بالفطرة بناء على لغرائز والطبائع التى أودعها الخالق فى مخلوقاته ولا تتطلب أن يتعلمها الصغير من الكبير .

ومن المعروف أن الله سبحانه وتعالى قد أودع فى جميع مخلوقاته بما فيها الإنسان غرائز وطبائع تكسبها القدرة على الحياة (عن طريق التغذية) والاحتفاظ بالنوع (عن طريق التكاثر) كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [٦ سورة هود]

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [٥٦ سورة هود]

ولكن الفطرة التى خلق الله النحل عليها لا تقارن بفطرة أى من الكائنات الحية الأخرى سواء كانت أصغر أو أكبر من النحل وسواء كانت أدنى أو أرقى منه ، ولذلك استحقت أن تذكر فى هذه الآية مقرونة بوحى الله .

ومعروف أيضًا أن الله سبحانه وتعالى خلق للحيوانات الراقية بجانب الغرائز الفطرية الموروثة فيها مستويات متفاوتة من العقل تمكنها من تقليد بعض الحركات وتعلم بعض التصرفات ، وأرقى درجات العقول قد أودعها الله فى الإنسان .

٢ – لماذا لم ينسب الوحى للنحل إلى لفظ الجلالة « الله » ؟ :

إن كل الآيات القرآنية التى تتضمن جميع المعجزات الإلهية من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والجبال والسحاب والأمطار ، والإنسان والأنعام والنبات ، وكل المخلوقات الكونية والكائنات الحية منسوبة إلى الله ، وفى كل منها عبرة تدعونا لأن نعبد هذا الخالق القادر العظيم .

ووحى الله للأنبياء والرسل ولمن اختصهم بفضله جاء منسوبًا إلى ذاته سبحانه وتعالى :

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [٣ : إبراهيم]

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [١١١ المائدة]

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ﴾ [٧٣ الأنبياء]

ووحيه سبحانه وتعالى إلى الكون حين خلقه جاء منسوبًا إلى ذاته أيضًا :

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [١٢ فصلت]

أما وحيه للأرض في سورة الزلزلة فجاء منسوبًا إلى « ربك » أى خالقك يأيها الإنسان لأن الأرض ستتحدث بوحى من الله وتروى أخبارك أنت يأيها الإنسان :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ (٨)﴾

وكذلك وحيه أو إلهامه سبحانه وتعالى للنحل فقد نسبه إلى « ربك » ، أى إلى من خلقك وسواك وجعلك إنسانًا ، وكما ميز الله

الإنسان على سائر المخلوقات بأرفع درجات النمو العقلى لكى يستعمر الأرض ، فقد ميز النحل بوحيه وأمده بأرقى وأسمى الغرائز والطبائع التى تمكنه من خدمة البشرية .

وفى هذه الآية مقارنة معنوية دقيقة بين العقل الذى خلقه الله للإنسان ، وبين الفطرة التى خلق النحل عليها لتأدية الأعمال التى ألهمه بها ، إذ لماذا لم يقرن هذا الوحى إلى لفظ الجلالة « الله » أى إلى الأله المعبود ، بل قرن إلى « ربك » بالذات أى رب الإنسان الذى يقرأ هذه الآية أو يستمع إليها سواء كان مؤمنًا بها أو كافرًا ؟

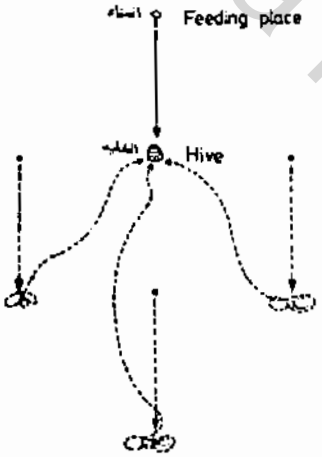

(شكل ٩) مجموعة من النحل الجامع حجرت على طبق الغذاء، لكى ينقل إلى جانب آخر من الخلية، حيث أطلق سراحه، فطار فى نفس الاتجاه الذى تعود عليه عند العودة، حيث لم يجد خليته عند نفس المسافة المعتادة، فعندئذ فقط بدأ بحثا تلقائيا عن الخلية حتى عاد إليها، ولو لم توجد بالمكان أية علامات أرضية

فبينما يؤدى النحل أعماله الاجتماعية من تغذية الصغار بطريقة غريزية تلقائية ، مثل أى من الكائنات المماثلة ، وبينما يبدو أنه لا يستعمل عقله تحت الظروف العادية ، ولكنه يفكر فقط إذا تم إرباكه تجريبيًا بنفله فجأة ، أو نقل مسكنه أو مصدر طعامه ، إلى مكان قريب مثلاً ، وفى هذه الحالة يستعمل عقله على أعلى مستوى من الدقة لكى يعود إلى الموقع الذى كان يقصده (شكل١)، ولكنه إذا نقل إلى مكان بعيد فوق تصوره يبقى راضيًا بالأمر الواقع .

ولكن قدراته فى البحث عن المسكن ، وتأثيثه بأقراص الشمع وكذلك فى البحث عن الغذاء وتمثيله ، لكى يتحول إلى سوائل ضرورية لحياته ، وفى نفس الوقت شافية للناس فلا تقارن بتلك الإمكانيات الموجودة فى أى من الكائنات الأخرى .

علاوة على أن النحل هو الكائن الوحيد (بعد الإنسان) الذى يمكنه أن يحيط مجتمعه علمًا بالأماكن البعيدة مثل مواقع السكن الذى يبحث عنه ، أو الغذاء الذى يجمعه بدون أن يصحب أيًا من أفراد مجتمعه (كما تفعل سائر الحيوانات الأخرى) ، وليس عن طريق الكلام كما يفعل الإنسان ، ولكن بلغة حركية ذات قدرة فائقة على تحديد المسافات والاتجاهات يؤديها بطريقة تلقائية روتينية فطرية موروثة ، (أى بناء على وحى الله له) بدقة لا تقارن إلا بتقنيات أحدث الأجهزة التى اخترعها الإنسان ، مثل الأجهزة الالكترونية المختلفة والحاسبات

(شكل ٢) نحلة عائدة من الحقل تؤدى رقصة ورأسها إلى أعلى ينحرف يمينا عن الخط الرأسى بزاوية حوالى ١٥° فتفهمها الشغالات الأخريات أن عليها لكى تذهب لنفس مصدر الغذاء أن تنحرف يمينا عن اتجاه الشمس بنفس هذه الزاوية إلى مسافة تعرفها بواسطة قرون استشعارها التى تلامس الشغالة الراقصة فتحول سرعة اهتزازاتها لمسافة كجهازى الرادار والحاسب الآلى.

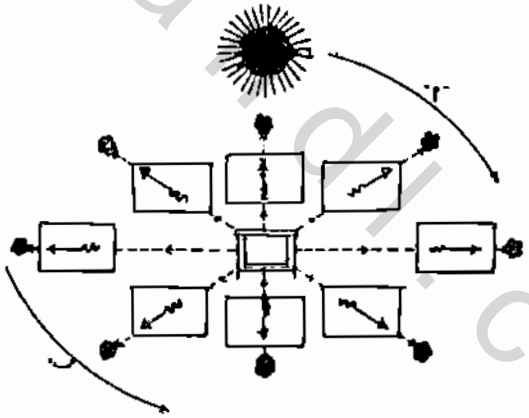

(شكل ٣) يتغير الاتجاه الذى تشير إليه النحلة العائدة من نفس الموقع على مدار النهار فى اتجاه القوس (ب) أى فى نفس اتجاه دوران الأرض حول نفسها، بينما يبدو لنا أن الشمس تسير فى اتجاه عقارب الساعة (القوس «ا») فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية.

الآلية والرادار والأجهزة الموجهة للقذائف و لأجهزة الفلكية وأجهزة الموجات فوق الصوتية ... وربما غيرها مما سيخترع فى المستقبل القريب أو البعيد .

وتعبِّر النحلة العائدة من الحقل عن المسافة بحركات اهتزازية ذات سرعات مختلفة ، ولفترات محددة بكفاءة فوق قدرة الأجهزة الالكترونية والحاسبات الآلية ، وعند ملامسة شعالات الخلية بقرون استشعارها النحل العائد ، تترجم حركاته إلى مسافات كما تفعل أجهزة الرادار ، أما الاتجاه فينسبه النحل إلى موقع الشمس فى السماء (شكل٢) عن طريق انحراف اتجاه رقصاته على أقراص الخلية عن الخط الرأسى ، وعلى ذلك فعلى مدار النهار يغير النحل اتجاه رقصاته التى تشير إلى نفس الموقع (سواء كان مسكنًا أو مصدرًا للطعام) كأنه يعلم أن الشمس ثابتة فى مكانها (إلى أعلى) ، وأن الأرض هى التى تدور أمامها حول نفسها مما يؤدى إلى زيادة استمرار انحراف موقعها بالنسبة للشمس (شكل٣) .

والنحل يشعر بمرور الزمن تبعًا للعلاقة بين سرعة هضم غذائه ، وبين سرعة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ... . فبالتجربة عرف أن النحل يحدد موقع الشمس بدون أن يراها ، بل وبدون وجودها بالمرة فى نفس المنطقة أى فى أثناء الليل ، إذ قام أحد الباحثين قبل غروب الشمس بفترة زمنية بوضع طبق به محلول سكرى خارج الخلية حيث

جمع منه النحل الغذاء وعاد إلى موقعه حتى توقف عن زيارته عند الغروب ، وعند منتصف الليل قدم للنحل داخل الخلية محلولا سكريًا مماثلاً فى الطعم والرائحة ، فتنبه النحل وأخذ فى الرقص مشيرًا إلى موقع الغذاء فى مكانه ولكنه منسوبٌ إلى موقع الشمس الجديد أى فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية كأحدث الأجهزة الفلكية (شكل ٤) .

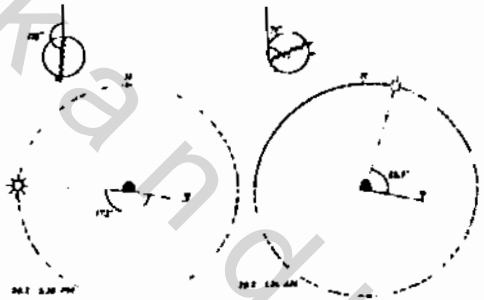

(شكل ٤) قبل غروب الشمس بقليل (الساعة ٥,٣٠ مساءً) غديت النحلة فى طبق موضوع فى جهة الشرق، حيث رأت الشمس على زاوية ١٧٢° يمينا بالنسبة لمكان الطبق، فأدت الرقصة بخطأ ٤°، وبعد منتصف الليل (الساعة ١,٢٤) عند إنارتها للرقص بداخل الخلية نسبت مكان الغذاء إلى موقع الشمس التى لم ترها فى هذا الوقت من الليل محدثة خطأ بمقدار ١٤° فقط فى حساب الزاوية المفترضة (٨٥,٧°) وقد يعود الخطأ القهقرى فى الروايا إلى إختلاف طريقة حسابها بواسطة النحل عن حسابها بواسطة الإنسان.

(شكل ٥)

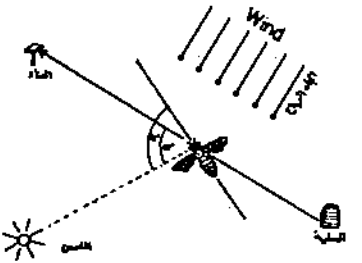

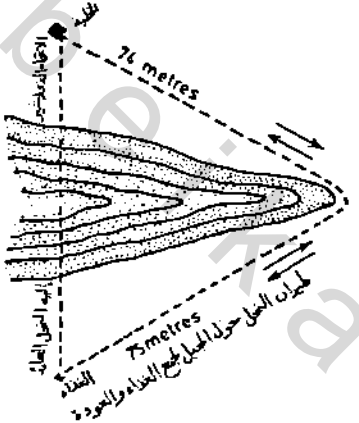

(شكل ٦)

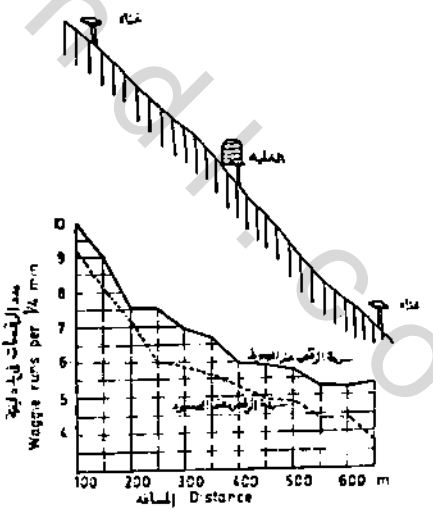

(شكل ٧) خلية نحل على منحدر حيث يوجد طبقان للغذاء أحدهما أعلى الجبل والآخر في أسفله، والرسم البياني يدل على أنه كلما كانت المسافة كبير بين الخلية والغذاء تناقصت عدد الرقصات في الدقيقة، وكذلك عند الصعود نحو الغذاء.

obeikandl.com

وإذا هبت ريح قوية أثناء طيران النحلة فى طريقها إلى مصدر الغذاء ، أو عائدة منه فإنها فى الحال تحور اتجاهها وسرعتها فى عكس اتجاه الريح ، بقدر يتناسب بالضبط مع قوة هذه الريح ، بحيث لا تضل هدفها ، كما تفعل الأجهزة الموجهة للصواريخ أثناء الحرب . (شكل٥)

وإذا وجد عائق مثل جبل مرتفع بين الخلية والهدف الذى تقصده النحلة ، مما لا يمكن وصفه بالحركات ، فإنها تحدد الاتجاه المباشر بين الموقعين كما سلكته مرة واحدة ، بينما هى فى الواقع لا تتبعه بعد ذلك حيث تدور حوله حتى لا يرهقها فى الصعود والهبوط . (شكل٦)

والمسافة فى تعبير النحل ليست مترية ، ولكنه يحددها بقدر المجهود أو الطاقة التى يبذلها أثناء طيرانه (شكل ٧) ، فالمسافات المتساوية قد تختلف فى نظر النحل تبعًا لظروف الطيران ، فإذا كان النحل هابطًا من أعلى الجبل إلى أسفله تبدو المسافة فى تعبيره كأنها أقصر منها عند الصعود ، وبنفس الطريقة فى الطيران مع اتجاه الريح يتطلب مجهودًا أقل عن الطيران عكس اتجاهه ، وعلى ذلك فإن النحل العائد يحدد لزميلاته من شغالات الخلية المسافة عند خروجه من الخلية إلى مصدر الغذاء ، وليس عند العودة إذ يختلف كل منهما عن الآخر تبعًا لسرعة واتجاه الرياح وطوغرافية المسافة .

وعندما تطير شغالات النحل فى الفضاء بحثًا عن مسكن جديد للتطريد ، فإنها لا ترى هذه المساكن بعيونها ، إذ لا يظهر من هذه

المساكن إلا ثقوبها وهى مشابهة لغيرها من الثقوب المتعددة بالحبال والأشجار ، ولكنها تشعر بالفراغات التى توجد خلف هذه الثقوب عن طريق الموجات فوق الصوتية الصادرة منها ، بينما لا يشعر بها الإنسان إلا عن طريق الأجهزة التى اخترعها .

٣ – لماذا خص الله النحل بوحيه دون سائر الكائنات غير المكلفة ؟ :

هل فضل الله النحل على الأنعام وسائر الكائنات النافعة التى تمدنا بالغذاء والكساء ، وتساعدنا فى التنقل وجاء ذكرها فى مواقع كثيرة من الآيات القرآنية ؟ إن الله قد خلق لكل كائن نفعًا وميز النحل على هذه الكائنات فى سلوكه وفى إنتاجه الشافى ، فقد كان وحيه سبحانه وتعالى إلى النحل فى ثلاث خصال خاصة باختيار المسكن وجمع الغذاء لإخراج ما فيه شفاء للناس ، والنحل لا يشارك الإنسان أو أى كائن نافع فى هذه المظاهر الثلاثة .

فمن حيث السكنى (شكل٨) ، فإن نحل العسل فى حياته البرية إما أن يبنى أقراصه الشمعية معلقة تحت صخور الجبال أو أفرع الأشجار (أى فى مكان لا يتناسب مع حياة أى كائن آخر) ، أو يبنيها داخل جحور تكون قد نشأت طبيعيًّا بفعل عوامل الزمن والظروف البيئية فى الجبال والأشجار ، وهذه لا تكاد تصلح لسكنى أى كائن آخر سواء كان نافعًا أو ضارًّا ، إذ أن الجُحر الذى يناسب

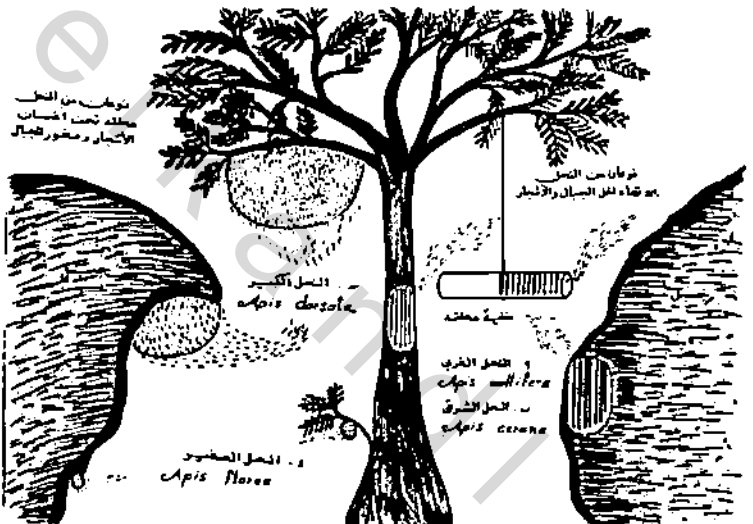
نوعان من النحل
يعلقه تحت أغصان
الأشجار ومخور الجبال
نوعان من النحل
يبنيان خلاياهما في تجاويف الجبال والأشجار
النحل الكبير
Apis dorsata
خلية معلقة
النحل الغربي
Apis mellifera
النحل الشرقي
Apis cerana
النحل الصخري
Apis florea

(شكل ٨)

النحل يكون واسعًا من الداخل لكى يبنى فيه أقراصه ، ومدخله عبارة عن ثقب صغير لكى يتمكن من حراسته ضد المفترسات ولا يسمح بتسرب الرياح أو الأمطار إليه ، وبالإضافة إلى ذلك فإن النحل لا يفسد الأرض التى يعيش فيها، إذ لايستطيع توسيع عشوشه مهما ضاقت عليه، فلايمكنه أن يحفر الصخر أوالأرض أويثقب الأشجار أويقرض المزروعات، كمايفعل النمل وسائر الحشرات وكذلك بعض الطيور والحيوانات.

والنحل لا يشارك أى كائن نافع فى الطعام الذى يتناوله ، فإن غذاءه الطبيعى من رحيق الأزهار وحبوب لقاحها ، فإن لم يجمعهما النحل ذهبا هباء ، بينما الطيور وسائر الحيوانات النافعة تتنافس مع بعضها البعض على الغذاء ، بل إنها قد تشارك الإنسان أيضًا طعامه ، أو تشغل مراعيها الأرض التى يحتاجها الإنسان لإنتاج متطلبات حياته ، وعلاوة على ذلك فإن النحل حين تنقله بين أزهار النباتات لجمع الغذاء منها يعمل على تلقيحها لزيادة محاصيلها من البذور والثمار .

والميزة الثالثة التى خص الله النحل بها وأوحاها إليه فهى تحويل غذائه إلى مواد شافية متعددة لا تتوافر فى مخلوق آخر سواء كان نباتًا أو حيوانًا .

٤ – ما مظاهر وحى الله للنحل ؟ :

وحى الله للنحل يتمثل فى سلوكه نحو الأزهار لأن الأزهار هى المصدر الطبيعى لغذاء النحل من الرحيق وحبوب اللّقاح ، والنحل هو أكفأ الحشرات فى تلقيح الأزهار لإنتاج البذور والثمار .

ونظرًا لتعدد أنواع النباتات بالأرض واختلاف مواعيد تزهيرها ومواعيد إفراز الرحيق ونثر حبوب اللّقاح ، فقد خلق الله للنحل غرائز وطبائع مناسبة تعينه على جمع وتخزين أكبر قدر من الغذاء فى أقصر وقت وبأقل مجهود ، وزود جسمه بمجموعة من الغدد قادرة على تحويل غذائه إلى السوائل المختلفة التى يخرجها من جسمه ، وأكسبه حساسية فائقة لمدى حاجة الطائفة التى يعيش فيها إلى العمل الذى تريده ، وإلى المادة التى تحتاجها لكى يجمعها من الحقل أو يفرزها من جسمه ، ثم ألهم الله الانسان أن يكشف القيم العلاجية لجميع منتجات النحل ، وأن يتعرف على الوسائل اللازمة لتوجيهه إلى إفراز أو زيادة إنتاج المواد المطلوبة .

والنحل مثل سائر الكائنات الحية ، يتعرض للإصابة بالأمراض ، ولكنه الكائن المستأنس الوحيد الذى لا تنتقل أمراضه إلى الإنسان . وكثير من الحشرات النافعة والضارة تزور الأزهار لتتغذى على رحيقها أو حبوب لقاحها ، فتعمل على تلقيحها وتساعدها فى إنتاج البذور والثمار ، ولكن النحل أكفؤها جميعًا فى هذا المجال ، لأنه يخرج

من خليته وله هدف معين بأن يجمع غذاءه من مكان محدد ومن أزهار نوع واحد من النباتات ، فيؤدى ذلك إلى ضمان تلقيحها ، إذ لا يتنقل بين أزهار الأنواع المختلفة مثل سائر الحشرات التى قد تحمل حبوب لقاح نوع من النباتات إلى أنواع أخرى لا تستفيد منها ، والنحل لديه إصرار عجيب ومثابرة فى تحقيق هدفه ، فيظل يبحث فى قاع الزهرة عن الرحيق مهما كان ضئيلاً ، وفى إصراره ذلك تتلامس مياسم الأزهار جيدًا بحبوب اللقاح التى تعلق بجسمه فيتقن تلقيحها ، وتنتج ثمارًا مبكرة النضج كبيرة الحجم منتظمة الشكل بعكس الحشرات الأخرى التى تأكل من الزهرة حتى تشبع فقط ، ولا تضطر لملامسة جميع مناطق المياسم فتثبت حبوب اللقاح فى بعض جوانبها فقط وتنتج ثمارًا غير كاملة البذور مما يشوه تكوينها أثناء نموها ويسبب نقصًا فى أوزانها .

والنحل مثل سائر الحشرات الاجتماعية كالنمل والدبابير يعيش فى طوائف يتكافل فيها الجميع ، وكأن كل فرد منها عبارة عن خلية فى جسم واحد ، وتقوم حياة الحشرات الاجتماعية على أربعة أسس هى :

١ - تمييز بعض الأفراد إلى ملكات وذكور خصبة لها القدرة على التكاثر ، بينما تبقى الأغلبية من الأفراد عقيمة لتقوم بسائر الأعمال – ولا تقتصر فائدة الملكات على وضع البيض فقط ، إذ تفرز من أجسامها مواد معينة (فرمونات) تكتسبها بعض الشغالات منها عند

ملامستها ، وتنقلها بين الجميع لكى يشعروا بوجودها فيتم بينهم الترابط والتعاون فى تأدية الأعمال .

٢ - تداول الغذاء بين جميع أفراد الطائفة مهما كانوا شبعى لكى يكتسبوا رائحة واحدة تميزهم عن أفراد الطوائف الأخرى ، ولكى يشعروا بوجود الملكة ، وحين شعورهم بفقدها أو ضعفها يقومون بتربية ملكات بدلاً منها .

٣ - توزيع الأعمال بين الأفراد تبعًا لأعمارهم واستعدادهم الجسمانى ، أى تبعًا لحالاتهم الفسيولوجية التى تتطور تبعًا لنموهم ، لكى ينجزوا واجباتهم بأقصى كفاءة ، ولكن عند الضرورة إذا تغيرت الظروف يقوم كل فرد بأى عمل يلزم للطائفة .

٤ - الاستمرار فى جمع الغذاء وتخزين الفائض منه للاستهلاك فى فترات القحط .

وفوق هذا القدر من الصفات المشتركة بين النحل وسائر الحشرات الاجتماعية ، يتميز النحل بسلوكيات خاصة تساعده فى البحث عن مسكن جديد عند رغبته فى التكاثر (التطريد) ، وفى الحصول على غذائه :

١ - عند البحث عن مسكن جديد أثناء رغبته فى التطريد ، تخرج مجموعات من النحل الكشاف كل مجموعة منها متجهة إلى مكان

مختلف ، فإن عثرت أى منها على موقع مناسب يصلح مسكنًا لها تترك فيه بعض الشغالات لتحرسه وتعود باقى الأفراد إلى خليتها لترقص فيها بطريقة معينة ، تدل على الاتجاه والمسافة التى يوجد عندها المسكن المقترح ، وبنفس الطريقة تشير الشغالات العائدة من المناطق المختلفة لتدل على المواقع المختارة ، فتخرج بعض الشغالات لفحص هذه المواقع وتعود للرقص فإن اتفقت واستقر رأيها على موقع معين خرج الطرد متجها إليه ، وإن اختلفت الشغالات فى الرأى أو لم تجد مكانا مناسبًا ، خرج الطرد ليتعلق فى أى مكان بصفة مؤقتة بينما يستمر البحث عن المسكن المناسب حتى يعثر عليه .

٢ - عند البحث عن الغذاء فى بداية مواسم النشاط ، يخرج بعض النحل الكشاف متجهًا إلى أى مكان حتى يعثر على هدفه ، فإن استطاع أن يحمل قدرًا معقولاً من الغذاء فى فترة زمنية مناسبة لا تزيد عن ٣٠ دقيقة ، يصعد طائرًا فوق مصدر الغذاء لكى يحدد مظاهره ويعود أدراجه إلى خليته ويرقص فيها بطريقة تحدد موقع الغذاء من حيث المسافة والاتجاه ، فتتجمع حول كل نحلة عائدة ، مجموعة من الشغالات تلامسها بقرون استشعارها لكى تشعر بذبذبات النحلة الراقصة لتعرف موقع الغذاء ، وتتناول جزءا مما تحمله النحلة العائدة لكى تعرف طعمه ورائحته ، ثم تخرج متجهة إلى نفس الهدف ، ويقوم كل النحل العائد (من المصادر المختلفة) بالرقص ما دام مصدر الغذاء مستمرًا فى العطاء لكى يستمر النحل فى السروح ، ويقل حماس

النحل العائد فى الرقص كلما أخذ الغذاء فى التناقص ، أى أن درجة النشاط فى الرقص تعمل كمؤشر على مدى وفرة الغذاء فى المواقع المختلفة .

٣ - نظرًا لارتباط النحل بمصدر غذائه الرئيسى ، وهى الأزهار ، فإنه يتصف بقدرة فائقة على تمييز الألوان ولكن بطريقة مختلفة عن رؤية الإنسان لها ، فيمكن للنحل أن يرى أربع مجموعات من الألوان وهى : (١) الأصفر (وتشمل الأصفر والبرتقالى والأخضر)، (٢) الأزرق المخضر، (٣) الأزرق (وتشمل الأزرق والقرمزى والبنفسجى)، (٤) الأشعة فوق البنفسجية ، التى لا تراها عين الإنسان ، ولكن النحل لا يرى اللون الأحمر العادى ، بينما الأزهار الحمراء فى الطبيعة تعكس قدرًا من الأشعة فوق البنفسجية التى تجذب النحل .

وبينما ينجذب النحل إلى الألوان المختلفة بدرجات متباينة ، فإنه ينسى اللون بسرعة ، ولا يمكنه تمييز الأشكال المختلفة من اللون الواحد حتى لا ترتبط ذاكرته بلون معين ، إذ أن أزهار بعض النباتات قد تكون متشابهة فى اللون ولكنها مختلفة فى محتوياتها من الرحيق وحبوب اللقاح ، وأزهار الأنواع النباتية المختلفة قد تكون موجودة طيلة اليوم ، ولكنها قد تكون خالية من الرحيق وحبوب اللقاح .

ومن المعروف أن النحل الكشاف فقط هو الذى يقصد الأزهار الملونة للبحث فيها عن الغذاء ، ولا يمكنه أن ينقل صفة اللون إلى

رفاقه فى الخلية ، أما الشغالات التابعة التى تخرج إلى هدف معين ، فإنها تطير إلى المسافة المقصودة أولاً وحينئذ تجذبها الأزهار الملونة وهى طائرة عن بعد فتتجه إليها ، وعندما تقترب منها يمكنها تمييز الأزهار ذات الرائحة المطلوبة فتزورها ثم تتجه إليها مباشرة فى الجولات التالية .

٤ - يتمكن النحل من التمييز بين الطعم الحلو والمر والمالح ، ويجذب إلى المواد الحلوة التى تحتوى على مكونات سكرية فقط تكون مصدر الطاقة له ، إذ أن مادة السكرين التى تبدو حلوة فى فم الإنسان ينفر منها النحل وتبدو له ذات طعم مر (وهى لا تحتوى على مواد سكرية) .

٥ - النحل له قدرة فائقة على تمييز مجموعة كبيرة من الروائح ، ويمكنه أن يتذكرها إذا منع عنها لمدة قد تصل إلى خمسة أيام ، وتفيده هذه الخاصية فى تحديد روائح الأزهار التى يجمع منها غذاءه ، وكذلك روائح النحل العائد من الحقل لمعرفة مصدر الغذاء الذى يحمله ، وكذلك تمييز النحل الغريب عن الطائفة .

٦ - يتميز النحل بقدرة على الإحساس بالزمن ، فأثناء جمعه للغذاء يعرف متى تفرز أزهار كل نوع من النبات رحيقها ، أو تنثر حبوب لقاحها ثم يداوم زيارة كل منها فى الموعد المناسب فقط حين تتوافر بها متطلباته الغذائية ، ويبدو أن معرفة وقت توافر كل نوع من الغذاء مرتبط بسرعة هضمه وتمثيله فى جسمه ، ولا يرتبط بالظواهر الطبيعية

الجغرافية كما يراها الإنسان ، أى أن جسم النحلة يشتمل على ساعة فسيولوجية خلقها الله فيه تحدد أوقات توافر الغذاء فقط ، وقد ثبت ذلك بتجربة علمية بسيطة ، إذ بعد تعويد النحل على التغذية فى موعد معين أمكن تأخيره عن موعده بإعطائه مع الغذاء مادة تنقص سرعة التحول الغذائى (وهى مادة يوكينين بتركيز ٠,٠١٥٪) ، وأمكن تبكيره عن موعده بإعطائه مادة تسرع التحول الغذائى (وهى مادة أندوثيروجلوبيولين بتركيز ٠,٠٧٥٪) .

٧ - يتفاهم النحل بالإشارات كما يفعل الصم البكم ، وإشارات النحل تتم عن طريق حركات تشبه الرقص تحدد بها الرغبات والاتجاهات والمسافات ، وعند الإشارة إلى مواقع مصادر الغذاء أو الموقع الذى اختاره عند التطريد ، فإنه يتم تحديدها بالنسبة إلى مكان الشمس منها حتى وإن كانت الشمس مختفية والسماء غائمة وملبدة بالسحب ، أى أن للنحل قدرة على الإحساس بالشمس تفوق قدرة الإنسان ، ونظرًا لتغير موقع الشمس بالنسبة لأى مكان أثناء الأوقات المختلفة من النهار ، فإن النحل العائد يستمر فى تأدية رقصاته مع تغيير اتجاهها فى كل مرة عن السابقة لها تبعًا لتغير موقع الشمس بالنسبة لمصدر الغذاء .

﴿أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾

معناها الظاهر البسيط أن النحل يسكن الجبال والأشجار وفيما يعرش الإنسان من صناديق وخلايا ، وكل ذلك معروف من قبل نزول

القرآن بآلاف السنين ، ولو كان ذلك المعنى الدارج هو المقصود فقط ما استحق أن يذكر فى هذه الآية الكريمة ، مع العلم بأن ترتيب مساكن النحل بالتعبير المذكور يفيد التسلسل المنطقى لنشأة هذه الأماكن من حيث الأسبقية والحجم والأصل حيث أن الجبال هى الأكبر حجمًا والأسبق فى الوجود ، بل إن معظم الغابات (الأشجار) توجد فوق الجبال ، وكل ما يعرش الناس مصنوع إما من أحجار وطمى الجبال أو من أخشاب الأشجار ... ، هذا مع ضرورة الإشارة إلى أن النحل لا يقطن الجبال الصخرية الجرداء ، ولكنه يسكن الجبال الخضراء المكسوة بالنباتات المزهرة ، وليس لهذا الترتيب السكنى علاقة بجودة العسل الناتج كما يدعى البعض بقولهم : إن العسل الجبلى أفضل من العسل الناتج من الأشجار ، وإن كليهما أفضل من عسل النحل الذى يسكن فى الخلايا ، إذ أن العسل وارد من رحيق الأزهار سواء من النباتات الزاحفة الرهيفة أو من الأشجار الباسقة الضخمة ، وأعلية النباتات الطبية ذات القيمة العلاجية الأعظم صغيرة الحجم تنمو إما فى الوديان أو على الجبال .

وهذه الجملة تتضمن إعجازًا لغويًا وإعجازًا علميًا يتضح من الإجابة عن الاستفسارين التاليين :

١ - لماذا لم يستعمل حرف « فى » بدلا من حرف « من » عند ذكر بيوت النحل ؟

٢ ـ لماذا جاء الكلام عن النحل فى صيغة التأنيث بينما كان الأمر للنمل مذكرًا فى سورة النمل ؟

إن نزول آية النحل بهذا التركيب الحرفى يدل على معجزة لغوية فى هذه الجملة ، ويدل على أنها جاءت من عند الله العليم الخبير ، لأن معناها كبير لا يخطر على عقل بشر ، وتعبيرها دقيق يفوق أرقى التعابير اللغوية فى الإيجاز والإعجاز ، إذ يوجد من نحل العسل أربعة أنواع : نوعان يقطنان داخل الجبال والأشجار والخلايا ويمكن استئناسهما وتربيتهما فى خلايا تنقل من مكان إلى مكان ، ونوعان آخران يسكنان فى طوائف على أقراص شمعية يلصقانها تحت الصخور البارزة من الجبال وتحت أفرع الأشجار ، ولم يمكن استئناسهما أو إسكانهما فى خلايا ، بل دائمًا يفضلان الحرية والضوء والهواء الطلق ، وحرف « من » هو الذى ينطبق على كلتا الحالتين ، فما أروع القرآن وما أبلغه وسبحان الذى أنزله .

فإذا استبدل الحرف « من » بحرف « فى » مثلاً التى تفهم من معظم التفسيرات العربية وبعض الترجمات للغات الأجنبية ، فإن الجملة فى هذه الحالة تنطبق مع مساكن النوعين الأولين فقط وإذا حذف حرف الجر تمامًا من هذه الجملة ، ففى هذه الحالة قد تعنى أن النحل يسكن فى أى مكان من الجبال والأشجار والتعاريش ، كما تفعل جميع المخلوقات الأخرى من الإنسان والأسود ، والقرود ،

والذئاب ، والكلاب ، والثعابين ، والطيور وغيرها التى تسكن بداخل أو فوق أو تحت الجبال والأشجار .

وإذا ضاق مسكن النحل بسبب التزاحم فلا يستطيع النحل توسيعه عن طريق الحفر الذى يسبب تلفًا فى المكان ، وبدلاً من ذلك يقرر النحل التطريد (الانثيال) ، أى يترك حوالى نصف المجتمع مسكنه بمصاحبة الملكة الأم بعد تربية ملكات لتحل إحداها محلها فى تأدية وظيفة وضع البيض بين العدد الباقى من الشغالات .

ما معنى وحى الله للنحل فى اختيار مسكنه :

عند اختيار النحل لمسكن جديد تقوم بعض أفراد من الشغالات (كل منها مستقلة عن غيرها) بتأدية عمل الكشافات ، فتطير فى الفضاء الواسع ، وعن طريق الإحساس بالموجات فوق الصوتية تنجذب الشغالات إلى الثقوب الصغيرة التى توجد خلفها فراغات ، سواء كانت فى الجبال أو الأشجار أو التعاريش ، وعند عودتها إلى مسكنها الأصلى تقوم النحلة الكشافة بإخبار أخواتها الشغالات عن طريق حركاتها اللغوية بموقع المسكن الذى وجدته من حيث المسافة والاتجاه ، وتقوم الشغالات الأخريات بحركات مختلفة عن المساكن اللاتى وجدنها .

وبعد ذلك تقوم شغالات مفتشات بالاتجاه إلى المساكن المختلفة لفحصها واختيار أفضلها ، وللتأكد من أن المسكن الجديد غير معرض

لأشعة الشمس الحارقة أو للرياح الشديدة ، أو لمياه الأمطار أو لهجوم المفترسات ... يزار عدة مرات فى أوقات مختلفة من أيام متعددة قبل اتخاذ القرار النهائى بواسطة الأغلبية العظمى من الآراء .

وبالإضافة إلى الإعجاز اللغوى فى هذه الجملة ، فهى تشتمل على إعجاز علمى فى ذكر النحل بصيغة التأنيث بينما كان الأمر للنمل مذكرًا فى سورة النمل ، مع أن النمل والنحل متماثلان فى القواعد اللغوية .

فقد جاء الكلام عن النحل مؤنثًا فى هذه الجملة وما بعدها لأن ما يقوم بجميع هذه الأعمال فى طائفة النحل هى الشغالات (وهى إناث عقيمة) ؛ فهى التى تختار المسكن عند التطريد ، وهى التى تجمع الغذاء ، وهى التى تخرج من بطونها المواد الشافية للناس ، بل هى التى تقوم بجميع الأعمال داخل الخلية وخارجها ، وهذه الحقيقة لم تعرف إلا حديثًا ، أما الذكور والملكات فلا تقوم إلا بالتكاثر .

وجاء فى كتب التفسير أن النحل مذكر ، ولكن جاء تأنيث الضمير على المعنى وهو الإيحاء بمعنى القول ، ولكن فقهاء اللغة يقولون : إن كلمة « النحل » قد أنثت لأنها جمع تكسير ، وجمع التكسير يجوز اعتباره مذكرًا أو مؤنثًا ، فيجوز تأنيث الفعل معه ويجوز عدم تأنيثه ، وكذلك يجوز عود الضمير على جمع التكسير بالتأنيث أو بالتذكير .

ولكن المؤلف يجمع بين التفسير الفقهى – الذى يقول : إن النحل مذكر – والتفسير العلمى المباشر بأن وحى الله للنحل موجه فقط إلى الشغالات (المؤنثة) ، لأن لفظ « النحل » مذكر ، إذ يقال مثلا « النحل يسكن الجبال ، النحل يأكل من الأزهار ، النحل يطير فى الحقول » .

وتوجد كلمات عديدة مشابهة للفظ « النحل » لم ترد فى صيغة مؤنثة أبدًا مثل النمل ، الزهر ، السمك ، البقر ، بينما بعض أشكال الجمع المشتقة منها وهى جمع الجمع يجب تأنيثها كما فى الأزهار – الأسماك – الأبقار – الأنعام .

والدليل على أن كلمة « النحل » مذكر (وهى مشابهة لكلمة النمل) قوله سبحانه وتعالى فى سورة النمل :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

وقد ذكر النمل مذكرًا لأن المخاطب فيها النمل بجميع فئاته من ذكور وملكات وشغالات ، والجمع الذى يتضمن الذكور والإناث يجمع مذكرا .

وفى آية النحل تحول الحديث عن النحل بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ إلى الحديث إليه بقوله : ﴿ أَنِ اتَّخِذِى ﴾ ،

﴿ثُمَّ كُلِي﴾ ، ﴿فَاسْلُكِي﴾ لكى يظهر فيها الإعجاز اللغوى العلمى ، إذ جاء الضمير مؤنثًا مفردًا ، لأن وحى الله للنحل جعله غريزة موروثة فى كل نحلة على حدة ، فتعرف كل شغالة عملها بمجرد نشأتها ، ولو كان المقصود بهذه الآية مجرد سرد للحقائق المعروفة عن النحل ، لما جاءت بهذا الأسلوب ، ولو كانت هذه الآية من تأليف بشر لجاءت بتعبير أبسط من ذلك بكثير .

وفى بعض الآيات القرآنية الأخرى تعبيرات مماثلة حيث لا يتطابق الضمير أو صيغة الفعل مع ظاهر الاسم المذكور ولكنه يتناسب تمامًا مع مضمون الحالة التى يتحقق بها الفعل : ففى سورة الحج ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ ، وفى سورة غافر : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ وفى كِلْتَا الآيتين جاءت كلمة « طفلاً » مفردا ، لأن الأطفال يولدون فرادى عادة ، ويكون التعدد نادرًا .

وفى سورة العنكبوت : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ .

وفى هذه الآية جاءت صيغة الفعل مؤنثة لأن أنثى العنكبوت هى التى تتخذ البيت وتنسج خيوطه من مغازل فى مؤخر بطنها .

وفى هذا التشبيه إعجاز آخر حيث يتضمن بعض الحقائق التى لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، فلا يليق أن تترك هذه الآية بدون تعليق ، ففيها تشبيه علمى دقيق بوصف حال الذين يعتمدون على غير الله ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ على مستويين من التشبيه بالنسبة للذين اتخذوهم أولياء ... ، ولنبدأ بالتشبيه العام أو الأقرب للتصور ، فمثلهم كمثل العناكب (بصفة عامة) ، وهى لا تقطن إلا الأماكن المظلمة ذات الهواء الراكد والجو الفاسد ، وتتخذ بيوتها من الخيوط الرفيعة حيث تحتمى بها ، وتعيش فى استرخاء وأمان ، لأن هذه الخيوط شديدة المتانة ومنسوجة بطريقة فنية تجعلها شديدة الحساسية لأية اهتزازات خارجية ، فتعمل على تنبيه العنكبوت وإيقاظه لتحذيره فى اللحظة المناسبة ... . علاوة على أن خيوطها تعمل على تكبيل أى حشرة تلامسها ، فتجعلها لقمة سائغة للعنكبوت الذى يشعر بالفريسة فى الحال فينقض عليها ويتغذى بها ... . أى أن هذه البيوت تمد العنكبوت بالحماية التامة بتوفير الطعام والأمان ، ولكن الله سبحانه وتعالى وصفها بأوهن البيوت لأنها تتحطم تمامًا على من فيها ، إذا انقض عليها كائن أكبر أو ضغط فوقها بأى شىء ، علاوة على أن هذه البيوت لا تحمى من فيها من الضوء أو الرياح إذ تهجرها إذا تعرضت للإضاءة ، أو تجدد هواؤها حيث تتهدل هذه البيوت وتتلاصق خيوطها ولا تصلح للسكن فيها ... وفى

هذا التشبيه إشارة إلى أن الذى يلجأ إلى غير الله يهلك بهلاك من يلجأ إليه لأن هذا الولى مهما كان جبروته لا يستطيع أن يحمى نفسه أو من يحتمى به .

ونفس الآية تعطى تشبيهًا آخر أكثر دقة حيث أن الولى أو المحتمى به يحفظ من يلجأ إليه طالما يستفيد من بقائه ، وبمجرد أن يكتفى من الاستفادة يضحى بمن لجأ إليه ، وذلك كما يحدث للعنكبوت الذكر عندما يلجأ إلى العش الذى تبنيه وتسكنه العنكبوتة الأنثى لكى يتم التزاوج ، فبمجرد أن تقضى أنثى العنكبوت حاجتها تنقض على العنكبوت الذكر وتلتهمه .

ثُمَّ كُلِى مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ

فى هذه الجملة إعجازات علمية ولغوية فى بدئها بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ وفى أكلها ﴿مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ﴾ ، فلو كان القرآن من تأليف بشر لجاء بهذه الآية فى صورة أكثر بساطة بأن تبدأ بحرف « الفاء » أو « الواو » ولقال فيها كلى من الثمرات الحلوة » أو « كلى من الثمرات » فقط فهذا أقرب إلى العقل ... ولكن سبحان الله الذى جاء بالقرآن معجزة أبدية للرسول ﷺ .

إن بدء هذه الجملة بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ يعنى الترتيب مع التراخى ، أى الترتيب مع التأجيل ، وهذا ينطبق تمامًا مع ما يحدث فعلاً وما لم يعرف إلا منذ زمن قصير ، إذ أن النحل حين يخرج من

(شكل ٩) ﴿أن اتخذى . بيوتا.﴾

(شكل١٠) ﴿ثم كل ﴾

obeikandl.com

مسكنه قاصدًا عشًا جديدًا (فيما يسمى بظاهرة التطريد) يكون مائئًا بطنه بكمية كبيرة من العسل ، قد تفوق وزن جسمه استعدادًا للرحلة المجهولة ، وبعد عثوره على المسكن لا يمكنه أن يأكل أو أن يبحث عن الغذاء إذ يكون متخمًا بالعسل(شكل٩)، ولا يستطيع التخلص من هذا العسل إلا بعد أن يحول جزءا منه إلى شمع يبنى به أقراصه ذات العيون السداسية ، فيفرغ فيها ما يبقى فى حوفه من عسل وبعد ذلك يبدأ فى البحث عن الغذاء (شكل١٠)، ولذلك لم يعبر عنها بأى من حرفى العطف الآخرين «الواو» أو«الفاء»، فسبحان الله القادر العليم .

وعند التعمق فى جملة ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، يتضح أنها تتضمن مصدر المادة العلاجية الفعالة فيما يخرج من بطون النحل، إذ أن النحل لا يأكل من كل الثمرات حلوها ومرها لتتحول فى أجوافه إلى عسل حلو كما كان الاعتقاد سائدًا فى التفسيرات المعروفة، فالنحل لايقترب من الثمار المرة ولاالثمار الصلدة، بل لايتمكن من أن يأكل من الثمار الحلوة إذا كانت سليمة صحيحة لأنه لايستطيع أن يصيبها مهما كانت ضعيفة أوقشورها رقيقة، ولكنه قد يتناول عصارة الثمار الحلوة إذا كانت مجروحة بفعل إحدى الحشرات الضارة أومفتوحة بسبب زيادة نضجها، وفى هذه الحالة ينتج عسلاً غير مستساغ الطعم .

أما الغذاء الطبيعى للنحل فيتكون من رحيق الأزهار وحبوب لقاحها ، فالرحيق يتحول إلى عسل وهو مصدر الطاقة لما يحتويه من

مواد سكرية ، أما حبوب اللِّقاح فهى مصدر المكونات الحيوية الأخرى من بروتينات وأحماض أمينية وفيتامينات وعناصر معدنية . ويبدو أن الرحيق وحده غير مقصود بهذه الجملة لأنه لا يوجد فى كل النباتات ، إذ تخلو منه معظم الأزهار التى تلقح بفعل الرياح ، وكذلك بعض الأزهار التى تلقح بواسطة الحشرات ، أما حبوب اللِّقاح فيبحث النحل عنها ويجمعها سواء من الأزهار التى تلقح بواسطة الحشرات أو بواسطة الرياح ، وحيث أن ثمرات جميع أنواع النباتات تتكون نتيجة اندماج حبات اللِّقاح فى مبايض الأزهار ، فإن حبوب اللِّقاح تدخل فى تركيب جميع أنواع الثمرات ، وعلى ذلك فيبدو أن حبوب اللِّقاح هى المقصودة فى هذه الآية بالتعبير فيها ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، لأنها من مكونات كل أنواع الثمرات ، حيث يأكل النحل منها ولا يسبب أى نقص فيها ، بل يساعد على إثمارها وزيادة إنتاجها .

والآية رقم ٣ من سورة الرعد تؤكد نفس التفسير بأن حبوب اللِّقاح هى المقصودة بتعبير « كل الثمرات » بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ ... وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... ﴾

أى أن الثمرات التى تنتجها جميع أنواع النباتات يدخل فى تكوينها خلايا ذكرية وأخرى أنثوية ، فالخلية الذكرية هى حبة اللِّقاح والخلية الأنثوية هى بويضة الزهرة ... ومن دقة التعبير القرآنى المحكم فى آية النحل وفى هذه الآية كذلك – حتى لا تدعا مجالا للشك من أنهما

من عند الله العليم الخبير – أن سبق ﴿كُلٌّ الثَّمَرَاتِ﴾ فيهما حرف « من » الذى يعنى الاستثناء لأن بعض أصناف الثمار لا تحتوى على خلايا ذكرية مثل الموز والبرتقال بسرة والعنب البناتى وغيرها من الثمار عديمة البذور ، وهى أصناف ظهرت كطفرات من الأنواع النباتية البذرية ، تتكون ثمارها بكريا بنمو مبيض الزهرة وحده ، وهذه المعلومات لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، ومع ذلك فقد وردت فى القرآن الكريم بأسلوب فيه إعجاز وإيجاز .

وقد تأكد أن حبوب اللِّقاح التى تبقى بكميات ضئيلة فى العسل بعد تصفيته هى المصدر الرئيسى للمواد الفعالة فيه ، علاوة على أن الغذاء الملكى وسم النحل بما لهما من قيمة علاجية عالية لا يستطيع النحل إفرازهما بدون التغذية على حبوب اللِّقاح ، والغدد التى تحول المواد السكرية إلى شمع لا تستطيع أن تفرزه إلا بعد أكل حبوب اللِّقاح ، علاوة على أن الأنزيمات اللازمة لتكوين كل المنتجات الشافية فى النحل نابعة من حبوب اللِّقاح .

وبصفة عامة فإن النحل الذى لا يتناول حبوب اللِّقاح أو بدائلها لا يستطيع أن ينتج شيئًا من السوائل الشافية ، بل لا يتمكن من الطيران أو مواصلة أنشطته الحيوية حتى يهلك ، لأن حبوب اللِّقاح هى المصدر الوحيد فى غذائه للمواد البروتينية والأحماض الأمينية اللازمة لتكوين خلايا جسمه وأنسجته وتعويض ما يفنى منها .

وبعض التجارب العملية التى قام بها المؤلف (بالاشتراك مع الأطباء والمختصين بالعقاقير والكيمياء الحيوية) تثبت أن العسل الذى ينتجه النحل من الرحيق الذى يجمعه من الأزهار ، يحتوى على بعض حبوب اللّقاح فيكون ذا قيمة علاجية مرتفعة ضد بعض الأمراض ، ولكن العسل الذى ينتجه بعد تغذيته على المحاليل السكرية لا يكون له تأثير علاجى ضد نفس الأمراض أو يكون له تأثير ضعيف بفعل الأنزيمات التى يفرزها النحل من جهازه الهضمى بفعل حبوب اللّقاح السابق تغذيته عليها أثناء الطور البرقى .

ففى التجربة الأولى استخدام العسل ضد تسممات الحمل الذى يظهر على بعض السيدات الحوامل فى الشهور الثلاثة الأخيرة من الحمل ومن أعراضه ارتفاع الضغط وانتفاخ الجسم (الأوديما) ، وزيادة نسبة الزلال فى البول ونسبة حمض البوليك فى الدم ، فقد أشير على ٢٠ سيدة (لديهم هذه الأعراض) بتناول معلقة كبيرة من العسل فى ماء دافىء قبل وجبتى الفطور والغداء وبعد وجبة العشاء لمدة أسبوعين ، وعند الكشف والتحليل بعد هذه الفترة ، اتضح شفاء ١٥ حالة تمامًا أى بنسبة ٧٥٪ فأشاد الأطباء المعالجون بهذه النسبة التى تزيد كثيرًا عن تأثير العلاج بالعقاقير ، ولكن المؤلف طلب منهم التمهل إذ لا يمكن القول بأن العسل يشفى الإنسان من مرض معين إلا إذا كان تأثيره أكيدًا على جميع الحالات المماثلة بدون استثناء ، حتى لا نسبب الشك فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ ﴾ إذ يجب أن لا يكون الشفاء

بالصدفة ... وحيث أن العسل المستعمل فى هذه التجربة كان يشترى من السوق ، فقد اشتبه المؤلف فى أن يكون العسل الذى لم يسبب الشفاء مغشوشًا أى ناتجًا من تغذية النحل بالمحاليل السكرية ، أى خاليًا من حبات اللُّقاح ، ولذلك فقد جمع بعض كتل حبوب اللُّقاح التى يأتى بها النحل إلى الخلايا ، وأعطاها الطبيب للمريضات الخمسة لكى تنثر على العسل المشكوك فيه بكميات ضئيلة (كما ينثر الفلفل على الطعام) على أن يمزج جيدًا لكى يعاد استعماله، وفعلاً... فبعد حوالى أسبوعين تأكد شفاء تلك الحالات الخمسة، وأصبحت نتيجة العلاج ١٠٠٪ .

وللتأكد من هذا الاستنتاج قام المؤلف بإنتاج نوعين من العسل للمقارنة بين تأثيرهما فى العلاج ، أحدهما من رحيق الأزهار تمامًا ، والآخر من تغذية النحل بالمحاليل السكرية فقط ، وتمت تجربتهما بالاشتراك مع بعض المختصين بالهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية ، ضد بعض الحالات المرضية المفتعلة فى فئران التجارب .

وتمت التجربة التالية لعلاج الجروح السطحية المفتعلة بطول ١٠ مليمتر ، فاتضح منها أن العسل الحقيقى (من رحيق الأزهار) يفوق كثيرًا العسل المزيف (من تغذية النحل بالمحاليل السكرية) سواء عند تناول العسل عن طريق الفم أو بدهانه فوق الجرح ، حيث أن العسل الحقيقى أسرع فى التئام الجروح ، وفى تكوين الأنسجة الحبيبية

بالمسافة الموجودة بين شقى الجرح ثم تحولها إلى أنسجة ليفية تعمل على تقارب حانبى الجرح والتحامهما ، ثم فى نشأة الطبقة الطلائية على السطح بطريقة نظيفة خالية من الندب .

وفى التجربة الثالثة تم افتعال قرحات معدية فى فئران التجارب بعوامل كيمائية وعصبية ، ثم أعطيت الفئران أحد نوعى العسل أو المحلول الفسيولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ، حيث شُرِّحت بعد ذلك فكان متوسط عدد القرحات فى معدة الفئران غير المعاملة بالعسل ١٥ قرحة ، بينما أنقص العسل المزيف متوسط عدد القرحات إلى ٨ ، أما فى حالة العسل الحقيقى فكان عدد القرحات ٣ فقط ... ، وفى شق آخر من نفس التجربة حيث كانت المادة الكيمائية المسببة للقرحة مصحوبة بالمادة العلاجية فخففت من أثرها ، فكان متوسط عدد القرحات ١٤ ، ٧ ، ٢ على التوالى .

وفى التجربة الرابعة تم اختبار نوعى العسل على التسمم بمادة الديجوكسين التى تستعمل فى علاج بعض أمراض القلب ولكنها تسبب بعض الخطورة والتعرض للموت أحيانًا (وهى مادة مستخرجة من نبات عشبى سام) ، وتمت التجربة بمقارنة الجرعة نصف القاتلة LD50 التى تقتل نصف الفئران المعاملة بها ، فكانت هذه الجرعة ٤ ملجرام/كيلوجرام وزن فى الفئران التى تتناول الطعام العادى ، أما التى أضيف العسل إلى غذائها لمدة أسبوع (بمعدل

$\frac{1}{2}$ جرام/كيلوجرام وزن) فكانت أشد تحملاً لهذه المادة السامة إذ ارتفعت الجرعة نصف القاتلة إلى ٤,٥ ملجرام فى حالة العسل المزيف وإلى ٤,٧ ملجرام فى حالة العسل الحقيقى .

وفى التجربة الخامسة تمت مقارنة نوعى العسل وكذلك كل من الغذاء الملكى وحبوب اللِّقاح بجرعات عادية اقتصادية كوقاية وعلاج ضد ارتفاع نسبة الدهن (والكولسترول) فى الدم ، بالمقارنة كذلك بتأثير العقار الدوائى الفعَّال وهو مادة كلوفيبريت ، وقد ظهر لجميع هذه المنتجات تأثير وقائى وعلاجى ضد ارتفاع كل أو بعض المكونات الدهنية فى الدم بدرجات متفاوتة وظهر أن الغذاء الملكى أكثرها فعالية وقائية وحبوب اللِّقاح أكثرها فعالية علاجية ، وكان العسل الحقيقى أكثر فعالية من العسل المزيف بدرجة كبيرة .

ولو كان الله سبحانه وتعالى يقصد أن العسل فقط فيه شفاء للناس لذكره صراحة كما ذكر اللبن فى نفس سورة النحل بقوله :

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾

لأن إنتاج اللبن من بين أحشاء الأنعام يتطلب عمليات حيوية معقدة مثل سائر مظاهر الحياة المختلفة التى لا تقوم بها إلا الخلايا الحية ، أى التى توجد فيها الروح من أمر ربها ، وتتضح فيها معجزة الخالق .

أما إنتاج العسل وحده مجردًا من حبوب اللِّقاح فليس بمعجزة بالغة تستحق الذكر ، إذ أن المعجزة الحقيقية التى يقوم بها النحل هى فى تحويل المواد السكرية إلى شمع ، وفى تحويل حبوب اللِّقاح مع بعض الرحيق إلى غذاء ملكى أو إلى سم أو إلى إنزيمات متعددة الأشكال تقوم بجميع التحولات الغذائية ، بالإضافة إلى اكتساب المواد الناتجة للخواص العلاجية التى لم تكن فى المواد التى نتجت منها ، وقد تكتسب خواص مضادة للخواص التى كانت فيها ، وعلى سبيل المثال فإن حبوب اللِّقاح (وهى الخلايا الجنسية الذكرية للنباتات) تسبب العقم لإناث النحل إذا تغذت عليها وهى صغيرة فى الطور اليرقى ، فتصبح شغالات غير قادرة على التزاوج لوضع البيض المخصب، وذلك لكى تتشكل جميع أعضائها لتأدية الخدمات اللازمة للطائفة ، فمن حكمة الله فى خلقه أن ينشىء فى رؤوس هذه الشغالات العقيمة غددًا تتميز بها ، خصصها سبحانه وتعالى لاستخلاص بعض المكونات من حبوب اللِّقاح التى تتغذى عليها الشغالات والتى تسبب عقم إناث النحل لكى تتحول بواسطة هذه الغدد إلى غذاء ملكى ، تطعم به ملكة الطائفة لكى تحفظ قدرتها على وضع البيض بكفاءة قد تصل إلى معدل ٢٠٠٠ بيضة يوميًّا، أو تطعم به اليرقات المؤنثة طيلة طورها اليرقى عند الرغبة فى تحويلها إلى ملكات بدلاً من تحولها إلى شغالات إذا أمدتها بحبوب اللِّقاح نفسها .

ومن الناحية اللغوية فإن فى هذه الجملة إعجاز مميز للقرآن ، إذ أنها جمعت بين التبعيض والشمولية لدقة التعبير عن معانى لم

تظهر إلا في العصر الحديث في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ، أي أن النحل يأكل أجزاء من كل أنواع الثمرات أو يأكل بعضًا من مكونات الثمرات بأنواعها المختلفة ، فالنحل يجمع الرحيق وحبوب اللُّقاح من الأزهار ، والأزهار هي أصل الثمار ، علاوة على أن حبوب اللُّقاح التي يعتمد عليها النحل في تغذية صغاره وفي إخراج جميع منتجاته الشافية ، تدخل في تكوين الثمرات وتندمج فيها وتعتبر من مكونات جميع أنواع الثمار (شكل١١).

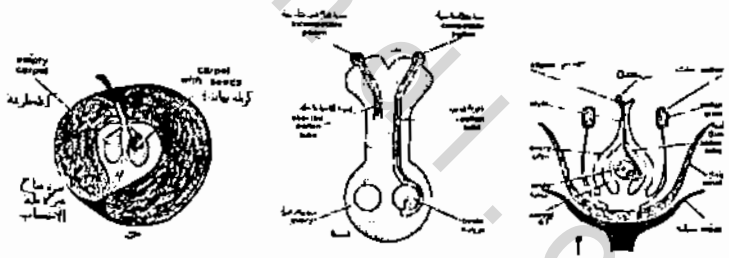

(شكل ١١) يوضح أن مكونات حبات اللقاح تدخل في تكوين ثمار

وقد ذكر تعبير ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الذى يجمع بين التبعيض والشمولية فى آيات أخر : ففى الآية ٣ من سورة الرعد :

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾

تعنى أن كل أنواع الثمرات تشتمل على الخلايا المذكرة والخلايا المؤنثة التى توجد فى بذورها ، وحرف « من » الذى يدل على التبعيض يستثنى الأصناف عديمة البذور فلا توجد بثمارها خلايا جنسية ، ولم تعرف هاتان الحقيقتان إلا فى العصر الحديث بعد نزول القرآن بمئات السنين .

وتعبير ﴿كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الذى جاء فى بعض الآيات القرآنية يقصد به جميع أنواع الثمرات ، ولكن التبعيض المفهوم من سبقها بحرف « من » يختلف من آية إلى أخرى .

وتعبير ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ جاء فى آيتين بعد إنزال المطر ، هما الآية ٥٧ من سورة الأعراف :

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِيَاحَ بُشْرَا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾

والآية ١١ من سورة النحل :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١)﴾

فتعبير ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ هنا يعنى أن الماء الذى ينزله الله من السماء يكون سببًا فى نمو وإثمار جميع أنواع النباتات على سطح الأرض ، ولكن ليس فى كل مكان أو تحت كل الأجواء ، إذ أن بعض أنواع النباتات أو بعض أصنافها تتطلب ظروفًا بيئية خاصة لكى تنمو ولا تصلح إذا لم تتوفر هذه الظروف .

وجاء فى نفس التعبير ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ عند وصف الجنة فى الدنيا ، أو فى الآخرة بقوله فى الآية ٢٦٦ من سورة البقرة :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

وقوله فى الآية ١٥ من سورة محمد :

﴿ مَّثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

فتعبير ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ فى هاتين الآيتين يعنى بعضا من جميع أنواع النباتات ، إذ يوجد البعض الآخر فى أماكن مختلفة .

وبجانب التعبير السابق ذكره جاء ببعض الآيات القرآنية تعبير « من الثمرات » — « من ثمرات » ، بدون تحديد ، حتى لا تشمل جميع أنواع الثمرات وذلك لكى تدل على الثمرات التى تؤكل فقط أو ثمرات بمواصفات خاصة كما يلى :

آية ٢٢ من سورة البقرة :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وأنتم تَعْلَمُونَ(٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤) ﴾

آية ١٢٦ من سورة البقرة :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾

آية ١٣٠ من سورة الأعراف :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بِالسنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

آية ٣٢ من سورة إبراهيم :

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾

آية ٣٧ من سورة إبراهيم :

﴿رَّبَّنَا إِنى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

آية ٦٧ من سورة النحل :

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

آية ٥٧ من سورة القصص :

obeikandl.com

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمكن لَّهُمْ حَرَمًا ءامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُل شَىء رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

آية ٢٧ من سورة فاطر :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾

آية ٤٧ من سورة فصلت :

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾

هذه الجملة بمفهومها الدارج عن قدرة النحل على الطيران فى أجواء السماء ، تثير كثيرًا من علامات الاستفهام :

(أ) إذا كان معناها ذلك حقًا ، فكيف تأتى بعد جملة ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ والمفروض أن تسبقها ، لأن النحل يطير باحثًا عن غذائه ثم يأكل منه ؟

(ب) لماذا بدئت بحرف العطف « الفاء » التى تعنى الترتيب مع التعقيب ؟

(جـ) لماذا لم تنسب كلمة السبل فيها إلى لفظ الجلالة «الله» وإنما نسبت إلى رب النحل أى خالق النحل ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تبرز إعجازًا علميًّا كبيرًا فى آية النحل ، وتؤكد أنها ليست من تأليف بشر لأن المعانى التى وردت فيها فى غاية الدقة ولم تعرف إلا منذ بضع سنين ، وحيث أنها نزلت على سيد المرسلين منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ، فلابد أن تكون موحاة من عالم الأسرار ، خالق النحل ، وخالق الكون كله .

فوجود هذه الجملة فاصلة بين تغذية النحل على الثمرات وبين إخراجه للسوائل التى تشفى الناس ، جعلت معناها بعيدًا عن التفسير الدارج بأن تسلك سبل الله بالطيران فى جو السماء ، ولكنها أقرب إلى كونها سبلاً ممهدة لإخراج السوائل الشافية من بطون النحل ، لاسيما وأنها تضمنت تعبير ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ أى سبل الرب الذى خلق النحل ، وذلك فيه تحديد بأن هذه السبل مخصصة للنحل فقط ، ولا يوجد مثلها فى كائن سواه ، وهذه السبل يمكن أن تفسر بأحد معنيين : المعنى الأول هو الطرق أى الممرات التى تصل بين معدة النحل وبين الغدد المختلفة التى تقوم بتحويل الغذاء إلى السوائل الشافية المتعددة ، والمعنى الثانى الطرق (جمع طريقه) أى التقنيات التى علمها الله للنحل وذللها له وغرسها فى فطرته ، وأدخلها فى غريزته لكى يحول غذاءه إلى أى من السوائل المختلفة الشافية للناس (شكل١٢) ، ومن البديهى أن هذه العمليات ينفذها النحل من خلال خلاياه الحية وهى سبل ربه أيضًا ، مادامت فيها الروح كما جاء فى قوله تعالى ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، فبعد موتها أو فقد الروح

منها لا تصنع شيئًا... وإذا كانت السبل تعنى الممرات يكون للفعل ﴿اسْلُكِي﴾ مفعول به (أول) قبل «سبل ربك» ولكنه محذوف تقديره «ما أكلت»... يعنى اسلكى (أى أمرى) خلاصة ما أكلت سل ربك لكى يخرج من بطونها (تلقائيًا) السوائل مختلفة الألوان كما جاء بقوله سبحانه وتعالى فى سورة الزمر : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾...

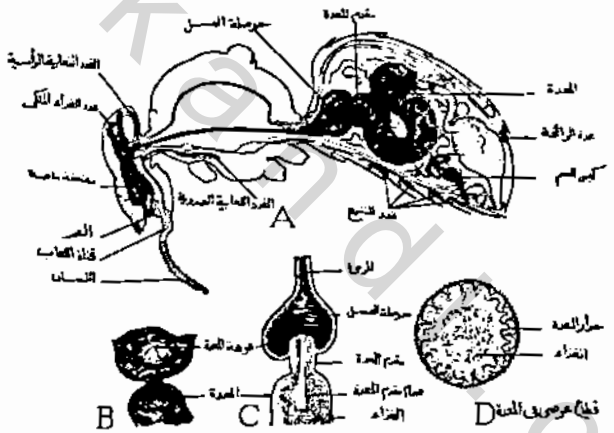

(شكل ١٢) غذاء النحلة بعد هضمه فى المعدة ينتقل عن طريق الدورة الدموية إلى الاعضاء والغدد المختلفة بسب تتفاوت تبعا لحالة النحلة الفسيولوجية حيث تمرر السوائل المطلوبه بالكميات المناسبة تلقائيا.

أما التفسير المفهوم لهذه الجملة بأن المقصود منها أن النحل يسلك سبل ربه ، أى يطير فى جو السماء بعد أن يأكل الغذاء لكى يعود إلى خلاياه أو عشوشه بدون أن يضل طريقه ، فلا يتواءم مع قوة هذه الآية ولا يتوافق مع وحى الله للنحل ، أى إكسابه قدرة تفوق قدرات كل الكائنات الأخرى ، حيث أن جميع الحيوانات مهما ضعف ذكاؤها تبحث عن غذائها ثم تعود إلى بيوتها دون أن تفقد طريقها ، ولو كان الله سبحانه وتعالى يقصد طيران النحل للبحث عن الغذاء بقوله ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ لجاء بها قبل جملة ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ولما جاء بها فاصلة بين أكل الثمرات وإخراج ما فيه شفاء للناس .

وبدء هذه الجملة بحرف العطف « الفاء » التى تفيد الترتيب مع التعقيب يطابق الواقع تمامًا ، إذ أن النحل بعد أن يأكل مباشرة يبدو ساكنًا بدون عمل ظاهر بينما تعمل غدده على إفراز السوائل المطلوبة .

وقد شكل الله من خلايا جسم النحلة أربع مجموعات من الغدد لإنتاج السوائل الأربعة ، فيوجه النحل غذاءه إلى أى منها تلقائيًا لإنتاج السائل المطلوب ، ولا يوجد كائن حى آخر له القدرة على تحويل طعامه إلى صور متعددة من المنتجات المختلفة كما يفعل النحل .

وبينما تفسير هذه الجملة فى معظم المصاحف المفسرة بأن الله يلهم النحل أن يسلك سبله فى جو السماء عائدًا إلى خلاياه ، بعد

جمع الغذاء ، بدون أن يضل طريقه ، فقد ألهم الله أحد مفسريه القدامى ، وهو إمام المحققين وقدوة المدققين القاضى ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر محمد الشيرازى البيضاوى (عام ١٨٣٠) فى كتابه « النصف الأول من القرآن الكريم وبهامشه التفسير المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ، إلى المعانى الثلاثة وهى المعنى الدارج والمعنيين الحديثين بفارق واحد فقط هو اعتبار العسل هو المقصود فى هذه الآية ، إذ جاء ما معناه أن الله يلهم شغالة النحل أن كلى من كل ثمر تشتهينها مرها وحلوها ، ثم اسلكى ما أكلت فى مسالكه التى يحيل فيها بقدرته الغذاء المر عسلاً من أجوافك ، أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل ، أو فاسلكى راجعة إلى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس . « وذُلُلاً » جمع ذلول ، وهى حال من السبل أى مذلّلة ، ذلّلها الله تعالى وسهلها لك ، أو من الضمير فى اسلكى أى وأنت ذال منقادة مطيعة لما أمرت به ، وسبحان الله الذى ألهم الإنسان عن طريق العلم إلى إمكانية توجيه النحل لكى يحول غذاءه إلى السائل المطلوب إنتاجه من بطنه إن كان عسلاً أو شمعًا أو غذاء ملكيًا أو سُمًّا لكى يمكن التداوى بأى منها .

ومما يؤكد صحة هذا التفسير أن الجملة التالية جاءت بدون حرف عطف مما يعنى أن الحدث الذى يتم فيها يكون ناتجًا عن الفعل فى الجملة السابقة أى أن الشراب الخارج من بطون النحل يكون ناتجًا عن سلوكه سُبُل ربِّه .

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ﴾

قد كان ومازال التفسير الدارج لهذه الجملة أن النحل يخرج من بطونه العسل الذى يشفى الناس من بعض الأمراض ، أى أنها تتضمن قدرة الله الخالق على إكساب النحل خاصية تحويل غذائه إلى مادة شافية للناس ، وهذه الخاصية معروفة عن النحل منذ زمن بعيد ، كما عرفت جميع ظواهر الحياة قبل نزول القرآن بفترة طويلة ، ويعتقد كثير من الناس أن هذه المعلومات قد وردت فى القرآن الكريم لتذكرة الناس بقدرة الخالق ، وكانت تلك التذكرة كافية لتتشبع النفوس الصافية بالإيمان فى عصر الروحانيات ، ولكن هذه الجملة بأسلوبها الذى نزلت به من عند الله سبحانه وتعالى تتضمن معانى أعمق من ذلك بكثير ، لكى تشفى النفوس التى تعرضت للمرض فى عصر الماديات ، ويتضح ذلك من الإجابة عن الاستفسارات التالية :

١ – لماذا عدل الله فيها إلى خطاب الناس بدلا من خطاب النحل الذى كان متبعًا فى الجمل الثلاث السابقة لها ؟

٢ – لماذا نسبت بطون النحل إلى مؤنث بينما ذكرت بطون الأنعام التى تخرج منها الألبان منسوبة إلى مذكر فى الآية ٦٦ من نفس سورة النحل ؟

٣ – لماذا لم يذكر صراحة أن العسل هو الذى يخرج من بطون النحل كما جاء أن اللبن يخرج من بطون الأنعام ؟

٤ – لماذا وصف ما يخرج من بطون النحل بأن ﴿فِيهِ شِفَاء﴾ مع أنه عند نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام كانت كل استعمالات العسل للغذاء ولم يوصف للعلاج إلا فى حالة الارتباكات المعوية ؟

لقد جاء فى تفسير ناصر الدين الشيرازى البيضاوى عن هذه الجملة أن الله قد عدل فيها عن خطاب النحل (فى الجمل الثلاث السابقة لها) إلى خطاب الناس لأنهم محل الإنعام عليهم والمقصودون من خلق النحل وإلهامه لأجلهم .

ومع أن المعروف عن هذه الآية أن المقصود بها العسل الذى يخرج من بطون النحل ، فقد جاء موصوفًا بالقدرة الشفائية مع أن معظم استعمالاته كانت ومازالت للغذاء ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى أن قيمته العلاجية تفوق بكثير قيمته الغذائية ، وقد ثبت ذلك المعنى من نتائج البحوث العملية الحديثة .

ولم يذكر صراحة أن العسل هو الذى يخرج من بطون النحل أو أنه هو الذى فيه شفاء للناس ، لأن الله يخرج من بطون النحل سوائل أخرى مختلفة الألوان وفيها شفاء للناس ، ولكنها لم تكن معروفة حين نزول القرآن على سيد المرسلين ، فكأن هذه الجملة الموجزة تتضمن المعنى الذى كان معروفًا فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام عن القيمة العلاجية للعسل ، والمعنى الذى لم يعرف إلا فى

القرن العشرين عن القيم العلاجية لكل من سم النحل والغذاء الملكى والشمع وحبوب اللّقاح والبروبوليس ، وازدياد معرفة القيم الطبية للعسل يومًا بعد يوم .

والمادتان الأخيرتان (حبوب اللّقاح والبروبوليس) لا تخرجان طبعًا من بطون النحل ، إذ يجمعهما من النباتات ، ويضيف إليهما بعضًا من العسل ممزوجًا باللعاب ، فتصبحان شافيتين للناس من بعض الأمراض ، ولذلك لم يذكر أن ما يخرج من بطون النحل شاف للناس بصفة عامة ، إذ قد لا يكون شافيًا من أحد الأمراض إلا بإضافته إلى مواد أخرى ، مثل حبوب اللقاح أو الصموغ (التى تسمى بعد ذلك بروبوليس) فى الحالة المذكورة أو إلى المواد الطبية الأخرى مثل الحبة السوداء أو زيت الزيتون أو عصير البصل وغيرها ، فى حالات أخرى متعددة .

وكلمة « شراب » التى جاءت فى هذه الآية مفسرة فى الكتب الدينية على أن العسل يشرب ، ولكننى أعتقد أن المقصود بها سوائل صالحة للشرب سواء كانت تشرب مباشرة وهى سائلة ،أو بعد إسالتها أو إذابتها إذا كانت متجمدة ، كما يتجمد العسل فى فصل الشتاء ، فلا يصلح حينئذ للشرب إلا بعد تعريضه للحرارة أو بإذابته فى الماء أو فى أحد المشروبات الأخرى ، وهذا ينطبق كذلك على منتجات النحل الأخرى مثل الغذاء الملكى والشمع والسم .

وكما أن العسل حين استعماله للتداوى (سواء فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام أو قبل ذلك أثناء الحضارات البشرية القديمة) لم يستعمل فى هيئة شراب فقط ، فقد اكتحل به ودهنت به الجروح ، واستخدم فى عمل العصائر وغيرها ، وهذا ينطبق أيضًا على منتجات النحل الأخرى .

ومع أن كلمة النحل جمع تكسير مما اعتاد العرب على تذكيره ، فان الضمير المنسوب إليه جاء مؤنثا بقوله سبحانه وتعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ ، لأن أفراد النحل التى تخرج المواد الشافية كلها شغالات (مؤنثة) ولم يعرف ذلك إلى فى العصر الحديث .

ومما يؤكد الإعجاز العلمى المقصود من تأنيث الضمير الذى يعود إلى بطون النحل ، ذلك التناقض (الظاهرى فقط) مع تعبير مماثل فى جملة تسبق هذه الآية بقليل ، حيث ذكرت بطون الأنعام التى تخرج الألبان منسوبة إلى مذكر (مفرد) ، فى الآية (٦٦) من نفس سورة النحل بقوله سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ .

وعندما تمعن فى التعبير الخاص ببطون النحل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ وذلك الخاص ببطون الأنعام « نسقيكم مما فى بطونه » تظهر دقة

التعبيرات القرآنية مع وجود التناقض الظاهرى بينهما ، مما يثير الاشتباه فى قلوب غير المؤمنين .

فلو كانت الآية الخاصة بالأنعام فى هذه السورة من تأليف بشر لما جاءت كلمة بطون منسوبة إلى مذكر بل كانت تنسب إلى مؤنث لأن كلمة الأنعام جمع تكسير مما اعتادالعرب على تأنيثه ، والأنعام التى تخرج الألبان من بطونها كلها إناث ، وكل أهل البادية منذ عصر ما قبل التاريخ يعرفون هذه الحقيقة ، ومن البديهى أن سيدنا محمدا وعشيرته كانوا يعرفونها كذلك ومع ذلك لم يجرؤ أحد على تعديل هذه الكلمة ولو على اعتبار أن فيها خطأ إملائيا لأن الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه متيقنون أنها من عند الله العليم الخبير ، واحتار فى تفسيرها الفقهاء ، إذ لم تنطبق عليها القواعد اللغوية التى تؤنث جمع التكسير المماثل لهذه الكلمة ، علاوة على أنها لم تؤنث ما بدأ مؤنثا ، وفى هذا إعجاز علمى كبير وتعبير لغوى دقيق بقوله تعالى ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ﴾ حيث جاء الضمير فيها مذكرًا ومفردًا .

وقد فسرت هذه الجملة فى بعض كتب التفسير بأن كلمة الأنعام مؤنثة ولكنها بمعنى النعم ، والنعم تذكر وتؤنث ، وقد أصبح الضمير مذكرا على أنه منسوب إلى النعم ، وفى بعض الكتب الأخرى يقال : إن ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ﴾ يراد بها (فى بطون ما ذكرنا) .

وللمؤلف تفسير علمي مباشر لا يحتاج إلى التأويل ، إذ أن الضمير المذكر الذى يعود على الأنعام فى هذه الآية مقصود بذاته ويعنى منها (مما يوجد فى بطون ذكور الأنعام) وجاء هذا الضمير فى صيغة المفرد لتأكيد ذلك (لأن الضمير هنا إذا جاء فى صيغة الجمع لا يميز بين الذكور والإناث) ولو قيل فيها (نسقيكم من بطونها) لكانت تعنى من بطون الأنعام بصفة عامة ومن بطون الإناث بصفة خاصة لأن الإناث هى التى تفرز اللبن ، ولا يجوز أن يقال (نسقيكم من بطونه) لأن اللبن لاينزل من بطون الذكور ، ولكن بقوله ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ﴾ أى مما يوجد فى بطون ذكور الأنعام لأن النطفة الذكرية إذا سببت الإخصاب وتكوين الجنين فى بطن الأنثى تعمل فى نفس الوقت على تنشيط ونمو الغدد اللبنية حتى يكتمل إفرازها بولادة الصغير ، أى يوجد تزامن بين الحمل وتنشيط الغدد اللبنية وبين الوضع وإدرار اللبن ، وقد عرف حديثًا أن النطفة الذكرية التى تسبب الحمل تفرز بعض الهرمونات التى تعمل على تنشيط الغدد اللبنية ولتأكيد ذلك المعنى تقرأ الآية التى تشتمل على هذا التعبير مع الآية السابقة لها :

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ .

إذ ربط الله سبحانه وتعالى بين الآيتين بقوله ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أى أن فى الأنعام نموذجًا ومثلاً يعتبر به فى قدرة الله على إحياء الأرض الميتة بواسطة الماء الذى ينزله من السماء ، إذ أن مفعول هذا الماء فى إنبات البذور التى توجد بالأرض واستخلاصها متطلبات نموها من بين حبيبات التربة وما تحتويه من مواد متحللة ، يماثل مفعول النطفة الذكرية فى بطون إناث الأنعام ، إذ تسبب لها الحمل، وفى نفس الوقت تنشط الغدد اللبنية فيها فتستخلص اللبن من عصارة المأكولات التى تعافها الأنفس عن طريق الدم الذى يحملها ، وتخرجه لبنًا لذيذ الطعم بمجرد أن تضع المولود الصغير .

ومع أن هذا التفسير لم يستسغه كثير من رجال الدين والمفسرين فقد اقتنع به أحد فقهاء الشريعة العاملين فى مجال فتاوى الأحوال الشخصية وأكده بأبوة زوج المرضع للرضيع ، فإذا أرضعت امرأة رضيعًا صار زوجها أبا للرضيع وأخوه عمًا له ، لأن اللبن ناتج عن الذكر ، كما قال صاحب الفقه الإسلامى وأدلته عن لبن الفحل ، والفحل هو الرجل المتزوج المرأة المرضعة إذا كان لبنها منه ، والحكم المقرر قوى جمهور الصحابة والتابعين وأئمة الاجتهاد أن اللبن للفحل ، فهو الذى يتعلق به التحريم أى أنه حق للرجل وقد حدث بسببه ، ولا تنقطع نسبة اللبن عن زوج مات أو طلق ، فبه يصبح زوج المرضع أبًا للرضيع .. كما جاء عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت : إن أفلح أخا أبى القعيس (زوج السيدة التى أرضعتها) جاء يستأذن

عليها بعد أن أنزل الحجاب ، قالت : فأبيت أن آذن له علىَّ ،فلما جاء رسول الله أخبرته بالذى صنعت فقال لها : إئذنى له فإنه عمك ... وسئل ابن عباس عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلامًا ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية قال لا ... اللِّقاح واحد .

والآية المشابهة فى سورة المؤمنين والتى لم يذكر فيها اللبن جاء ضمير البطون مؤنثًا ويعود على الأنعام بصفة عامة ذكورها وإناثها ، بعد أن أضاف الله إليها المنافع المتعددة التى تعود من كلاهما إلى الإنسان : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٢٢)﴾ .

﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

ختمت آية النحل بأن إعجازها لن يظهر إلا بالتعمق والتروى فى التفكير ، إذ أنها تبدو سهلة وبسيطة إذا قرأناها قراءة سطحية ، وتبدو ركيكة غير متناسقة وغير واقعية إذا تمعنا فى تركيبها بنفس الفكرة الأولية التى كانت معروفة عن النحل منذ بدء الخليقة ، ولكنها تتطابق تمامًا مع المعلومات التى عرفت حديثًا عن النحل ولم تكن معروفة حين نزول القرآن على سيد المرسلين ، ويتضح من ذلك أن فى هذه الآية معجزة تدل على أنها من عند الله العليم القدير بالإضافة إلى الإلهام

الذى وهبه سبحانه وتعالى للنحل لينتج لنا سوائل متعددة فيها شفاء للناس ، وصدق الله إذ قال :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

وفى القرآن الكريم آيات أخر تدعو إلى التفكر لكى يظهر الإعجاز فيها مثل :

١ ـ الآية ٣ من سورة الرعد :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣)﴾

٢ ـ الآية ١١ من سورة النحل :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءٍ لكم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾

٣ - الآية ٢١ من سورة الروم :

﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِتِ وَيُخْرِجُ الْمَيتَ مِنَ الْحَى وَيُحْىِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

٤ - الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

٥ - الآية ١٣ من سورة الجاثية :

﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

obeikan.com

الإعجاز الطبى فى آية النحل

قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآء لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٦٩)﴾

كان المفهوم من هذه الآية ومازال مفهومًا حتى الآن لدى جمهور المسلمين المثقفين منهم وغير المثقفين ، أن إعجازها الطبى ينحصر فى إشارتها إلى أن العسل فيه شفاء للناس ... . ولكن أين الجديد فى هذه الآية إذا كانت جميع الأديان السماوية وغير السماوية تنصح أتباعها بالتداوى بالعسل ، بل إن أوراق الطب المصرية القديمة التى كتبت قبل نزول القرآن بآلاف السنين أخذ العسل فيها دورًا بارزًا كعنصر شفائى ووصف بأنه شراب الآلهة ، وفى كتب الطب القديمة الروسية والصينية والهندية نسب إلى العسل كثير من المزايا العلاجية ،

obeikandl.com

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ذكر عن الطب الشعبى للهنود الحمر عشرات الوصفات أخذ العسل فيها مركز الصدارة ... هيهات هيهات ... إن ما جاء فى هذه الآية يفوق ذلك بكثير ، ويظهر إعجاز القرآن العظيم .

إن آية النحل تضمنت فى المجال الطبى تعبيرين لا تعارض فيهما مع المعلومات الواردة بالكتب السابقة ، ولكنهما وردا بأسلوب يتضمن كل التغييرات والاكتشافات التى سيتوالى ظهورها حتى يوم القيامة ، وهما : (أولا) عدم ذكر « العسل » صراحة فى هذه الآية مع أنه هو المفهوم منها ضمنيا ، و (ثانيا) ذكر « شفاء الناس » مطلقًا بلا حدود ، ومن هذين التعبيرين يفهم أن العسل ليس وحده الذى يخرج من بطون النحل وفيه شفاء للناس ، وأن الأمراض التى تشفى بواسطة منتجات النحل تتعدى كل الحدود .

وبالرغم من أن العسل فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستعمل إلا فى علاج بعض الارتباكات الهضمية ، بينما كانت كثير من المواد الطبيعية والنباتات الطبية تستعمل على نطاق واسع ، كل منها فى علاج أحد أو بعض الأمراض التى كانت تعرف آنذاك ، وتدل أيضًا على قدرة الخالق ، فلم يذكر فى القرآن الكريم شىء منها ، لأن لكل منها تأثيرًا علاجيًا لعدد محدود من الأمراض ، لا يقارن بالمجال الشافى الواسع للعسل ، الذى ظهر فى العصر الحديث ، ولمنتجات

النحل الأخرى التى لم تعرف إلا منذ بضع سنين ، مما يكسب هذه الآية إعجازاً علمياً وطبياً يتناسب مع بدئها بوحى الله للنحل وختامها بأن فيها آية لقوم يتفكرون .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن آية النحل هى الآية القرآنية الوحيدة التى ذكر فيها شفاء الناس منسوباً إلى شىء مادى ، حيث نسب الشفاء فيها إلى ما يخرج من بطون النحل ، بينما لم يذكر الشفاء إلا فى ثلاث آيات قرآنية أخر وفيها نسب إلى القرآن الكريم نفسه كما يلى :

١ – ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ﴾

آية ٥٧ من سورة يونس

٢ – ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

آية ٨٢ من سورة الاسراء

٣ – ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾

آية ٤٤ من سورة فصلت

وقد جاء فى هذه الآيات الثلاث أن القرآن هدى وشفاء ورحمة ، والمقصود بالشفاء به طبعًا شفاء النفوس والأرواح من الأمراض الإنسانية

كالكفر والحقد والحسد والجشع والأنانية وغيرها .. مما تسبب القلق للإنسان وتصيبه بالأمراض النفسية والجسدية .

أما المقصود من آية النحل « والله أعلم » فهو شفاء الأبدان عن طريق التداوى بمنتجات النحل المتعددة وليس بالعسل وحده ، إذ لم يذكر العسل صراحة بأنه هو الذى يخرج من بطون النحل أو بأنه هو الذى فيه الشفاء ، إذ تخرج من بطون شغالات النحل سوائل متباينة الألوان بالإضافة إلى العسل : وهى الغذاء الملكى الذى تطعم به صغارها وملكاتها ، والسم الذى تلدغ به أعداءها دفاعًا عن بيوتها ، والشمع الذى يخرج من بطونها سائلاً أيضًا ويتجمد بمجرد تعرضه للهواء لتبنى به أقراصها ، علاوة على المواد التى تجمعها من النباتات ، وتضيف إليها مواد من إخراجها لكى تستعملها أثناء حياتها مثل حبوب اللقاح التى تختزنها للتغذية عليها ، والمادة الصمغية المسماة بروبوليس أى مادة البناء الأولية التى تستعملها فى تضييق مداخل خلاياها حتى لا تدخلها التيارات الهوائية ، وفى لصق الأقراص والإطارات حتى لا تهتز عند هبوب الرياح القوية ، وقد ثبت فى العصر الحديث أن لجميع هذه المواد العديد من الفوائد العلاجية ، وفى كل ذلك دليل على إعجاز هذه الآية التى تضمنت حقائق ظلت كامنة حوالى أربعة عشر قرنًا من الزمان ثم ظهرت فى العصر الحديث .

ومن عجائب القدر أن من أكد هذه الحقائق علماء من غير المسلمين ، بل إن أكثر البحوث التى أثبتت القيمة العلاجية لمنتجات النحل أجريت فى مستشفيات الدول الشيوعية التى تنكر وجود الإله ، ومن ثقتهم فى نتائج هذه البحوث وفوائدها للإنسانية أن أقيم فى بوخارست برومانيا عام ١٩٧٥ أول مركز طبى عالمى متخصص للاستشفاء بواسطة منتجات النحل ، تردد عليه فى العام الأول لإنشائه أكثر من ١٢٠٠٠ مريض ، وتزايدت أعدادهم سنويًا باضطراد ، وتقام فى هذا المستشفى دورات تدريبية للأطباء والكيماويين والمتخصصين بالتغذية على استعمال منتجات النحل فى العلاج ، وأقيمت مراكز طبية مماثلة فى روسيا والصين واليابان – كأن الله سبحانه وتعالى يثبت على أيدى أشد الناس عداوة للإسلام ، بأنه هو الخالق العالم بأسرار الحياة قبل أن يكتشفها العلماء ، وأن القرآن الكريم حقا من عنده سبحانه وتعالى وقد حفظه بألفاظه وتعبيره ، ولم يسمح بتداوله بلغة غير عربية لكى لا ينحرف تفسيره حتى تتأكد حقيقته كما وصفه بقوله ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، وعلينا نحن المسلمين أن نكمل اكتشاف الفوائد العلاجية لمنتجات النحل حتى نستفيد مما أنزله الله بين أيدينا ، ونطبق تعاليم القرآن ونحقق أنه شفاء ورحمة للمؤمنين .